وقفة لغوية مع «سورة الناس»

أ.د. مازن المبارك(*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

لقد تكرّرت كلمة (النّاس) في هذه السورة القصيرة التي لا تتجاوز السَّطرين خمس مرّات.

١- هل كلمة (الناس) مكرَّرة بمعنًى واحدٍ، أو دلالة واحدةٍ في المرّاتِ الخَمس؟

٢- لماذا لم يُعطف بحرف العطف كلٌّ من ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ و﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ على ما قبله؟

٣- لماذا كُرِّر الاسم الظاهر، ولم يَنُبْ عنه ضميره، ولم يُقل: (ربِّ الناس ومَلِكهم وإلَهِهم)؟

هذه الأسئلة هي التي دعتني إلى التأمّل في هذه السّورة، ومحاولة الوقوف على ما فيها من ظواهر لغوية تعبيريّة تلفت النظر، وقد وصلت –

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

بحمد الله وفضله – بعد التفكير في أسلوب التعبير في هذه السّورة إلى ما يأتي بيانه:

يمرّ الإنسان في حياته بثلاث مراحل يتميّز بعضها عن بعض بكثير من الخصائص والصفات.

أما المرحلة الأولى، فهي مرحلة الخَلق الأولى، التي يكون الإنسان فيها نطفةً فعلَقة فمُضغة فعظاماً – ثم تُكسى باللحم، ويُنفخ فيه الروح، فيصبح جنيناً ثم وليداً رضيعاً، ثم طفلاً ينمو حتى يقف على عتبة الشباب في مرحلة البلوغ والمراهقة.

وأما المرحلة الثانية، فمرحلة المراهقة والفتوَّة والشّباب، وهي مرحلة يتمّ فيها اكتمال جسمه، ويتطلّع هو فيها إلى الرجوليّة التي تصبح هدفاً يسعى إليه وإلى الظهور بمظهرها، ويروح يقلِّدها بكثير من مظاهرها في سلوكه وتصرّفاته، إنها مرحلة تكتمل فيها القوّة ومظاهرها، والعَظَمة وما يحيط بها... لذلك يتَّجه في هذه المرحلة إلى أن يحقِّق القوَّة في الانتساب إلى فِرق الكشفيّة والفُتوَّة والأندية الرياضيّة، ويعشق البطولة ومَن يمثّلها من الرجال والأبطال والرياضيِّين، والزعماء والقادة والحكّام والملوك، إنّها المرحلة التي تغلب على صاحبها فيها العناية بالجسم أكثر من العناية بالعقل والفكر، فإذا بلغ المرحلة الثالثة، أصبح رجلاً، شبع من الشباب وفورته، وغلّب النزعة العقلية وتطلَّع إلى الحياة بجميع جوانبها وحاجاتها الفكرية والنفسية والروحيّة، وما تقتضيه. إنها المرحلة التي يبلغ فيها تمامه، وتجتمع فيها قواه الجسمية والعقلية.

وهكذا تتلخّص المراحل الثلاث، بأن الأولى تكون منذ الخَلق إلى الولادة حتى بلوغ الحُلُم. فإذا بلغ الحلم تجاوز الطفولة ودخل مرحلة

الشباب التي تستمر ويبدأ يشتدّ عوده، حتى يبلغ أشُدَّه ويكتمل جسماً وعقلاً، فيصبح كهلاً في نحو الأربعين من عمره، إنساناً ناضجاً مكتمل الرجولة. وقد صوّر القرآن تلك المراحل الثلاث، وأشار إليها أو عبّر عنها، فقال تعالى عن المرحلة الأولى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وأشار إلى انتهاء المرحلة الأولى، مرحلة الطفولة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. والطفل يبقى موصوفاً باليتيم حتى يبلغ الحلم، وبلوغ الحلم يعني انتهاء عهد الطفولة. روى الزَّبيدي في التاج عن الأزهري قال: «بلغ أشدّه في قصّة يوسف، معناه الإدراك والبلوغ، وكذلك هو في مال اليتيم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ يعني أن يُؤنَسَ منه الرُّشد بعد البلوغ».

واليُتْم في اللغة الانفراد، واليتيم من البشر مَن فقد أباه، وهو دون البلوغ، فإذا بلغ لم يَعد يوصف باليُتم. قال الليث: هو يتيم ما لم يبلغ الحلم، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم[(١)].

وكذلك يبدو تحديد مرحلة الطفولة واضحاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ [النور: ٥٩]. أي إن بلوغ الحلم يخرج الإنسان من مرحلة الطفولة إلى مرحلة جديدة. وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

(١) تاج العروس (يتم).

طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ [الحج: ٥]. ورتّب المراحل الثلاث في آية أخرى فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾ [غافر: ٦٧]. وبلوغ الأشدّ، قيل: مبلغ الرجال الحنكة والمعرفة، وقيل هو الإدراك والبلوغ، أو أن يؤنس منه الرشد. ومنتهاه أن يبلغ صاحبه الأربعين(٢).

وتبياناً لبلوغ الأشُدّ وتوضيحاً لمرحلته قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وجاءت في تاج العروس أقوال في بلوغ الأشُدّ منها: «أما في قصّة موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ [القصص: ١٤] فإنه قرن الأشُدّ بالاستواء، وهو أن يجتمع أمره وقوّته ويكتهل وينتهي شبابه» وجاء «وأما قوله في الأحقاف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾. فهو أقصى نهاية بلوغ الأشُدّ. وعند تمامها بعث محمد ﷺ، وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله»(٣).

وأوضح من ذلك ما تشير إليه آية الأحقاف من التفات مَن بلغ مبلغَ الرجال المكتملين في المرحلة الثالثة إلى الدّعاء، وإلى شكر النعمة، وإلى الاستعانة على القيام بالعمل الصالح، وطلب صلاح الذريّة، والتوبة من شوائب ما مضى من العمر... أي من حياة الشبّان ورغباتهم إلى حياة الرجال وضراعتهم إلى الله سبحانه شاكرين مستعينين تائبين.

والناس هم البشر، وهي كلمة شاملة للأطفال، وللفِتيان والشَّبّان، وللرجال والشيوخ، ولكل مرحلةٍ من مراحل العمر، من أوّلها إلى نهايتها.

---

(٢) تاج العروس: (شدد).

(٣) تاج العروس: (شدد).

وقد رأينا أن الإنسان في مرحلته الأولى يحتاج إلى رعاية وحفظٍ وصَون وتغذية وتنميةٍ وتربية، وذلك منذ كونه علقةً في قرارٍ مكين، وفي الظلمات الثلاث، وفي سنّ الرّضاعة... إنه في تلك المرحلة في أشدّ الحاجة إلى المربّي القادر على العناية، وإلى القيِّم الذي يرعاه جنيناً ورضيعاً، ويمُدّه وهو طفل بكل أسباب الحياة ونمائها، وذلك هو ما يقوم به (الربُّ) المربّي، يقال: ربَّ الشّيءَ، وربّاه، أي: أصلحه، وقام على أمره، ونشّأه، وغذّاه، ورعاه، وعلّمه، والربُّ: مالك الشيء، وسيّده، ومربِّيه، ومُتمِّمه، والقيِّم عليه، والمدبِّر لأمره وشؤونه، والمُنعم عليه(٤). وإذا كان ذلك كلّه من عمل (الربّ) وكان (الربّ) هو الذي ينشئ ويغذّي ويُنمّي ويُمدّ مربوبه بكلّ ما تحتاج إليه حياته واستمراره، فإنَّ أشدّ المخلوقات حاجةً إليه هم الأطفال منذ يكون أحدهم علقة إلى أن يتجاوز مرحلة الطفولة، وأولئك هم (الناس) الذي يحتاجون إلى (ربّ الناس).

ولمّا كان عمل الربّ هو ما ذكرنا من تربيةٍ وتنمية مستمرَّة وإمدادٍ بكلِّ وسائل الحياة، وضمان استمرارها واستمرارِ المَربوب أو المربِّي في عمله، جاء ما يناسبه من مضاف إليه في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ولم يقل: مَلِك العالمين، ولا غيرها؛ لأنّ العالمين جمع عالَم – بفتح اللام – وهو كلّ ما سوى الله. أي ليس في الوجود إلا خالق ومخلوق،

---

(٤) في التاج (رب): أن الربَّ يطلق في اللغة على المالك، والسيّد، والمدبِّر والمربِّي، والمتمِّم. وعند اللحياني: ربَّ المعروفَ والصنيعةَ والنِّعمة يَربُّها ربّاً ورباباً ورِبابة: نمّاها وزادها وأَتمَّها وأصلحها.

وقال ابن الأنباري: الربّ ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الربّ المالك، ويكون الربّ السيّد المطاع، ويكون الربّ المصلح. وربَّ الصبيَّ يَربُّه ربّاً، وربّاه أي: أحسن القيام عليه، ووليه حتى أدرك، أي حتى فارق الطفوليّة، كان ابنه أو لم يكن.

والخالق واحد أحدٌ هو الله، والمخلوق كلّ ما سواه من إنسان وحيوان ونبات وجماد. وكل هذه الكائنات المخلوقة في حاجة إلى (ربٍّ) يقوم على تربيتها وإمدادها بكلّ ما يجعل حياتها دائمة، وعملَها في الحياة مستمرًّا. فالأرض ودورانها، والليل والنهار وتعاقبهما، والنجوم والكواكب والمجرّات وحركاتها، والنبات ونماؤه، والمياه وتوزّعها... وكل ما في الكون يحتاج إلى قيِّم يقوم عليه ويرعاه رعاية مستمرّة كافلة وشاملة، ولا يقوم بذلك إلّا (الربّ) فكان هو الاسم الملائم لإضافة (العالمين) إليه.

وأما الفتيان والشبّان، محبّو القوّة والسيطرة والعظَمة، فهم الناس الذين يحتاجون إلى مالكٍ قويٍّ قادر على التصرّف، ملكٍ مستوثق مما يملك حاكمٍ عليه، لا يخرج شيءٌ عن ملكه، ولا يشاركه أحد فيما يملك. إنّ كلمة (مَلِك) حين ترد في القرآن أو تُذكر فيه، تتصاغر أمامها مرادفاتها أينما ذُكرت في غير القرآن، وأينما وردت وصفاً لأحدٍ في الدنيا، فهو سبحانه – كما وصف نفسه – ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]. وهو: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: ٢٣] وهو ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ [الحشر: ٢٤] وهو ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] هو «مَلِك الناس، كلِّ الناس، وله مُلك السموات والأرض، وهو الذي ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١] بل ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وكلُّ مُلكٍ زائل إلّا ملكه، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقد بُدئ القرآن بـ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] في فاتحته، وانتهى بـ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾. في آخر سُورة، وإلى هذه القوّة والقدرة يتطلّع الناس الذين هم الفتيان والشبّان وعشّاق القوّة والسّطوة، وإنهم (الناس) الذين يحتاجون إلى من تتمثَّل فيه كلّ الصفات، وهو ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، بل هو سبحانه ﴿مَٰلِكَ

ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وفي اللغة المُلك كلُّ ما يُملك، والإنسان يميل بفطرته إلى الملك والتملّك حتى يصبح ذلك عادة متأصّلة عنده، يخاصم ويقاتل من أجله، وتقوم الحروب للحصول على الملك أو للمحافظة عليه، لذلك يأتي كلام الله تعالى بعد أن يقول للناس إنه «ربُّهم» الذي ربّاهم، وقام على رعايتهم وإنشائهم حتى وصلوا إلى وعي الملك وحبّ التملّك، ليقول لهم إن المُلْك له! وإنّه المَلِكُ الحقّ، وإنه يملك كلَّ شيء، وبيده مَلكوت كلِّ شيءٍ، وإنه هو الذي يوزّع مرتبة الملوكيّة على من يشاء من عباده، وينزعها عمّن يشاء، فهو سبحانه ربّ الأرباب، وملك الملوك.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[آل عمران: ٢٦]. فلا تشغلْ نفسك أيها الإنسان بطلب المُلك، فالملك بيده يعطيه من يشاء من عباده، وينزعه منه متى يشاء، هو سبحانه المعطي وهو المانع، وهو المعزُّ وهو المُذلّ.

فإذا انقضت سنوات الإعجاب بالقوّة وبالمُلك وما يُمثّله، حمل الإنسانَ عمرُه إلى مرحلةٍ جديدة تستولي فيها على النفس سِماتُ الحكمة والتفكير، فيروح يسأل عن النهاية والمآب، وعن الكون والحياة، إنه الآن في مرحلة الرجولة والاكتمال، ومرحلة اشتغال العقل بالسؤال عن الحياة والنهاية والمآل، إنه في شوق إلى ما يملأ القلب راحةً وأمنا وأماناً واطمئناناً، إنه بلغ المرحلة التي يحتاج فيها إلى قوّة يركن إليها، ويطمئن بذكرها قلبه، إنه في حاجة إلى إلّه فردٍ أحدٍ صَمَد، يؤمن به، ويُسلِّم له، ويتوكّل عليه. إنه الشوق الفكري والقلبي والروحيّ، المتطلّع إلى الكون وما فيه، والمتفكّر فيمن أبدع وأوجد، والسائل عن الموت وما بعده، وكانت آيات الكتاب العزيز تعلن مُعلِمةً أن لهذا الكون موجداً، وأن له نظاماً في ليله ونهاره،

وشمسه وقمره، وضوئه وظُلمته، وأن كلَّ شيءٍ بحساب، وكل شيءٍ بقدَر وبوزن، وأنه لا تضبطه مصادفة، ولا يمكن أن يحكمه اثنان ولا أكثر، بل لا بدّ من خالقٍ واحدٍ فرد صمدٍ لا صاحبة له ولا ولد، ولا شريك له ولا مثيل.

إنهم في هذه المرحلة يحتاجون إلى (إلَه) يأنسون به، ويلجؤون إليه، ومَن إلَهٌ يكون لهم إلَّا الله؟ إنه ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾.

وهكذا قامت الصلة بين المضاف والمضاف إليه في «ربّ الناس» و«ملك الناس» و«إلَه الناس» مقام الدلالة على طبقات الناس وشرائحهم في أطوار حياتهم المتعاقبة من طفولةٍ إلى شبابٍ إلى رجولة وكهولة، وهي أطوار كأطوار الخَلق، أشار إليها ربّنا سبحانه بقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ - ١٤]، إنها أطوار شبيهة بأطوار الخَلق الأول ذي الظلمات الثلاث. ونلاحظ أنه خصّ كلّ طور بما يحتاج إليه احتياجاً خاصًّا من «ربٍّ» أو «مَلِك» أو «إلَه»، وجعل ترتيب هذه في الذكر ترتيبَ تلك المراحل في الحياة.

ثم نقف عند (الناس) في المرحلة الثالثة والأخيرة، فنجد أنهم صنفان مختلفان، وأن لكلِّ صنفٍ منهم طريقه؛ فمنهم من يسير في طريق الهدى والإيمان، ومنهم من يسير في طريق الغواية والضلال، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

نجدَ الهدى والطاعة، يسير فيه عباد الرحمن الصالحون والأتقياء، وهم الذين سمعوا قول ربِّهم وتدبَّروه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وهم الذين جعلهم الشيطان هدفاً لغوايته، يلاحقهم ويوسوس في صدورهم، كما وسوس لسيّدنا وأبينا آدم وأمّنا حوَّاء، وحكى ذلك ربّنا جلّ جلاله فقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

إنهم الطبقة الصالحة من (الناس) الذين يطاردهم الشيطان ليوسوس في صدورهم، وليصدّهم عن الطاعة. وأما الصنف الثاني من (الناس) فهم الذين اختاروا النجد الآخر، وساروا في طريق الغواية والضلال، وهم أتباع الشيطان وجنوده؛ لأنَّ كلًّا منهم شيطان يريد إغواء أصدقائه من الناس ليكونوا أمثاله! وهي عادة أكثر الناس، يريد الضالّ أو الفاسد أو العاصي منهم أن يكون رفيقُه مثلَه، حتى لا يتعالى أو يستشرف عليه باسم الشرف أو الفضيلة، إنّهم شياطين الإنس وهم كالجِنّة، لذلك قرنهم ربّنا بهم فقال في آخر سورة الناس عن الذين يوسوسون في صدور (الناس) إنهم: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

فالذين يوسوس الشيطان في صدورهم هم أتقياء الناس، وهم الذين اتخذهم الشيطان أعداءً له، والذين يوسوسون في صدور الناس هم الشياطين الذين نستعيذ منهم، سواء أكانوا من الجنّة أو الناس.

وقد جاءت (مِن) في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانيَّةً، تبيّن أن الذي يوسوس يكون من الجِنَّة ويكون من النّاس، ونحن غالباً ما نحذّر من وسوسة الشيطان، ونغفل عن وسوسة أمثالنا من البشر الذين هم كأولئك الشياطين خطراً وإفساداً، فكم أفسد واحد من الشبان رفاقه؟ وكم أفسدت طالبة زميلتها؟ لذلك كان التحذير ممَّن تصاحبه من الناس واجباً كالتحذير من الوسواس الخنّاس من الجنّ.

وهكذا تكررت كلمة (الناس) في هذه السورة خمس مرّات، وكانت في كلّ مرّة تدلّ على جديد، أو على طبقة معيَّنة أو مرحلة عُمريّة محدَّدة من (الناس).

ومن الجدير بالذكر ما نلاحظه من صلة بين المضاف والمضاف إليه في

مثل (ربّ الناس، وملك النّاس، وإلّه النّاس)؛ لأنه إذا كان المضاف إليه يعرّف المضاف كما يفصّل في الحديث عن ذلك علماء المعاني، فإن المضاف أيضاً يلقي بظلال معناه على المضاف إليه ويخصِّصه؛ إنَّ في (ربِّ النّاس) وأمثالها تعريفاً للناس بكلمةِ (ربِّ) وتمييزاً لها من (ربِّ البيت أو ربّ العمل)، كما أن في كلمة (ربّ) تخصيصاً للناس الذين لهم ربّ، هو سبحانه ربّ لكلِّ النّاس، وملك لكل الناس، ولكن كونه ربًّا يدلّ على قسمٍ من الناس، وكونه ملكاً يدلّ على قسم آخر... وهكذا في الإضافة هنا تعريف للمضاف بالمضافِ إليه وتخصيص للمضاف إليه في المضاف وكذلك لو قلنا: كلية الآداب، وكتاب الآداب، وفنون الآداب، ومنهاج الآداب، لدلّ المضاف على شيء مخصوص مما تشمله وتدلّ عليه كلمة الآداب إذا أطلقت مجرّدة من الإضافة. وهكذا كانت كلمات (ربّ وملك وإلّه) التي أضيفت إليها كلمة (الناس) مبيِّنة للصلة الخاصّة للناس في كل إضافة بالمضاف إليه.

ونضيف إلى ما سبق الملاحظات الآتية:

١- وردت كلمات (ربّ) و(مَلِك) و(إلّه) في هذه السورة متتابعة بترتيب معيَّن، فكلمة (ربّ) تدلّ كما رأينا على المربِّي أو المتمِّم والقيِّم والمدبر، فكيف إذا كان (الربّ) هو (الملك) المالك والقاهر والمهيمن؟ ثم كيف إذا كان (الملك) هو (الإلّه) الصمد المعبود؟ وكأن كل اسم من هذه الأسماء الثلاثة المتعاقبة كان أشمل لما قبله في الدلالة وأوضح في القصد.

٢- ثم إن هذه الأسماء الثلاثة تعاقبت من دون حرف من حروف العطف، وفي ذلك أولاً إشارة إلى أنها أسماء لمسمًّى واحد - جلّ

جلاله - والشيء لا يعطف على نفسه. وفيه ثانياً أنها جاءت على طريقة عطف البيان، وهو الذي يكون المعطوف فيه (أبين) من المعطوف عليه كما رأينا في تبيين (الإلّه) لـ(الملك) وزيادته عليها معنًى وإيضاحاً، وفي تبيين (الملك) لـ(الربّ) وزيادته عليه أيضاً في المعنى والبيان.

٣- زد على ذلك أن الأسماء الثلاثة أضيف إليها اسم ظاهر واحد هو الناس... ربّ الناس، ملك الناس، إلّه الناس، ولم يُستغن عن الاسم الظاهر عند تكراره بضميره، فلم يقلّ «ربّ الناس وملكهم وإلّههم»، وذلك لأن عطف البيان، كما يدلّ عليه اسمه، يقتضي البيان، والبيان يقتضي الظاهر البيِّن لا الكناية أو الضمير.

وسبحان من علّم القرآن، وأنزله بلسان عربيٍّ مبين، وخلق الإنسان، علّمه البيان.

والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *